

مجلة
مجمع اللغة العربية

الجزء الثالث والعشرون

١ / ١٢ / ١٩٦٧

القاهرة
الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
١٣٨٨ هـ — ١٩٦٨ م

تصـــدير

معجم ألفاظ الأدب الجاهلى

للدكتور ابراهيم أنيس المشرف على المجلة

بسم الله ، والحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وبعد

فمع صدور الجزء الثالث والعشرين لمجلة مجمع اللغة العربية ، وبين يدى ما يقدمه من بحوث أصيلة فى اللغة ، وإحياء لتراثها ، ودراسات قيمة لبعض المستشرقين ممن توفروا على بحثها ، أود أن ألمح إلى ذلك الخاطر الذى طالما عنَّ لى ، والأمنية التى دعوت الله أن يوفق الدارسين إلى تحقيقها ، وتلك هى : تصنيف معجم لألفاظ الأدب الجاهلى .

فمنذ أن جمعت نصوص هذا الأدب ودونت فى القرون الأولى للإسلام ، والعلماء من اللغويين يتوفرون على دراستها ، وتحقيقها ، ونقدها ، وشرح ما غمض منها ، فى كتب ومصنفات كثيرة اتسمت بالأصالة والجدة والأمانة العلمية ، كما اتسمت بالإحاطة والشمول ، فلم تترك قصيدة أو خطبة أو وصية إلا نسبتها لقائلها ، وحققت رواياتها ، وقيمت كل رواية منهـــا .

ولكن مصادر هذا الأدب ومادته لاتزال غير ممهدة أو ميسرة للباحث فى ألفاظ لغتنا العربية قبل الإسلام. فهو ، لوعورة البحث فى هذه الألفاظ ، يضل الطريق العلمى السليم فى كثير من الأحيان

ومع كل مابذله القدماء من جهود علمية ، لاأعرف أن أحدا منهم فكر فى تصنيف معجم شامل لألفاظ هذا الأدب الجاهلى مستمدة من نصوصه ، أو على الأقل على نحو ماقام به الأوائل منهم من تصنيف رسائل وكتيبات لألفاظ موضوع بعينه ، أو مجال دلالى خاص ، كالذى كان من أبى زيد الأنصارى ، والأصمعى وأبى عبيدة وغيرهم . فلأبى زيد رسالتان إحداهما فى ألفاظ اللبن ، والأخرى فى ألفاظ المطر ؛ وللأصمعى رسائل كثيرة لعل من أشهرها تلك التى اختصت بأسماء الوحوش ، وبالإبل ، وبالخيل ، وبالنبات والشجر ؛ ولأبى عبيدة رسائل كثيرة أيضا فى الزرع ، والإبل ، والخيل ، والسيف ، وغير ذلك .

ومعجم ألفاظ الأدب الجاهلى –كما أتصوره أو أتمناه– معجم يضم كل الألفاظ التى وردت فى نصوص هذا الأدب مرتبة ترتيبا هجائيا مع الإشارة إلى النص الذى جاء فيه كل لفظ، ودلالة اللفظ فى سياقه، ونسبة شيوع هذا اللفظ فى نصوص الأدب الجاهلى، وغير ذلك مما تعنى به المعاجم والفهارس الحديثة .

وفى رأيى أن مثل هذا المعجم يخدم البحث اللغوى والأدبى خدمة جليلة، فمنه يستمد اللغوى فى سهولة ويسر دراسته عن صيغ الألفاظ أو بنيتها فى عصر ما قبل الإسلام، ونسبة شيوع كل منها، كما يستمد معلومات قيمة عن أصوات اللغة ونسبة شيوعها أو توزيعها فى الألفاظ، كذلك يتمكن الباحث مع مثل هذا المعجم من الدراسة الدلالية أو «السمانتيكية»، تلك التى تلقى ضوءا ساطعا على الحياة الاجتماعية لأجدادنا العرب القدماء .

ثم فوق كل ما تقدم يصبح هذا المعجم بمثابة أساس نرجو أن يمهد للمعجم التاريخى الذى نفتقده، ومن واجبنا أن نتطلع إليه . وقد حاول البدء فى هذا المعجم التاريخى منذ أكثر من نصف قرن المستشرق الألمانى «فيشر»، ثم تبين له بعد ثلاثين عاما أنه لم يقطع فى تصنيفه إلا شوطا قصيرا، فناشد مجمعنا الموقر أن يعينه على الاستمرار فى إنجاز هذا العمل الضخم، ولبى المجمع نداءه، واستؤنف التصنيف، ولكن المنية عاجلته فى أوائل الحرب العالمية الثانية، تاركا لنا آلافا من جذاذات لم يقيض لها أن ترى النور حتى الآن .

أما بعد : فأدعو الله مخلصا أن يوفق مجمعنا إلى الاضطلاع بمشروع معجم لألفاظ الأدب الجاهلى، فيؤلف له لجنة من أعضائه الكرام، ومساعدين من المحررين الفنيين فيه، على نحو ما قام به فى معجم ألفاظ القرآن الكريم : وبالله التوفيق

ابراهيم أنيس

ديسمبر سنة ١٩٦٧

القسم الأول

مقالات وَبحُوث

رأى فى اسم الفعل

للأستاذ على النجدى ناصف

نعم ، هذا مجرد رأى يقال بلفظ التنكير ، لأنه كذلك فى واقع الأمر . وقصارى مايرجى له من شأن أن يعد رأيا حقا ، وأن يذكر فى غمار الآراء التى يمكن أن يراها الباحثون فى اسم الفعل . ومايبغى له أن يكون أكثر من ذلك ، لأنه وليد بحث نظرى ، وسبيل الباحث إليه التظنى والافتراض ، توضحه له وتهديه فيه معالم من قرائن بينة ، وإشارات موجهة ، تقوم على أساس من طبيعة الأشياء ومقتضيات الأحوال . وعلى مقدار مايتهيأ لمثل هذا الرأى من هذه وتلك يكون قدره بين الآراء التى يهدى إليها النظر والاستنباط .

أما الرأى الذى يحق له أن يقال بلفظ التعريف . ويعرض على أنه الرأى الفرد فى موضوعه لاشريك له ولا منازع — فهو الرأى الذى يهدى إليه البرهان القاطع ، لايقبل جدلا أو خلافا ولايحتمل شبهة أو ارتيابا . وأين البحوث النظرية من هذا البرهان ، وأين هو منها ؟ إنهما متباعدان ، وما لها إليه ولا له إليها من سبيل .

وبعد ، فقد لحظ علماء النحو وهم يدرسون العربية ، ويستنبطون لها القواعد والأحكام — أن ثمة نوعا من الكلمات يقبل علامات الأسماء ، ولكنه لا يدل مثلها على معنى أو ذات ، بل يدل كالأفعال على حدث وزمان ، أى أنه فى لفظه يمكن أن يعد من الأسماء ، وفى معناه يمكن أن يعد من الأفعال ، فاختلفوا فيه ، وذهبوا مذاهب فى تعيين نوعه .

فرآه جمهور البصريين اسما ، ولكن لا كالأسماء الخالصة ؛ لأنه ينوب عن الفعل ويؤدى معناه ، لذلك أضافوه إليه ، وجعلوه اسما له ، فقالوا : اسم الفعل ، أى الاسم الذى يدل على على الفعل ، كما يدل كل اسم آخر على مسماه . ومن البصريين من يجعله فعلا حقيقة ، واسما استعمالا .

ورآه الكوفيون فعلا من الأفعال ، وإن كان منه لما يقبل بعض علامات الأسماء ، كأنهم لايأبهون لهذا التشارك فى العلامات ، ولايرونه حقيقا أن يزحزحه عن مكانه بين الأفعال ، فقد يلحق التنوين القوافى مطلقة ومقيدة ، أيا ماكان نوع الكلمة التى ينتهى بها البيت أوالمصراع فى الأبيات المصرعة ، وأثرت أيضا بضعة شواهد من الشعر دخلت فيها أل على الفعل المضارع (١) وكأن الكوفيين كذلك لايفرقون بين تنوين وتنوين ، ولابين أل وأل ، إذ كانت

---

(١) انظر الخزانة فى الشاهد الأول .

سواء فى الأحرف والأصوات . أو كأنهم — على وجه العموم — لايقيمون وزنا لجملة الفروق اللفظية التى تميز اسم الفعل من الفعل ، إذ كانت تتعلق بلفظه لا بمعناه ، إذا صح أن المعنى كان آثر عندهم من اللفظ فى معرض المفاضلة والترجيح.

ورآه أبو جعفر أحمد بن صابر — من نحاة القرن السابع الهجرى — قسما رابعا من أقسام الكلمة ، وسماه خالفة ، ولعل ذلك لأنه رآه لايشبه الحرف ألبتة ، ولايشبه الأسماء ولا الأفعال شبها تاما ، فلا هو يؤدى معنى جزئيا كالحرف فيكون حرفا ، ولا هو يشبه الأسماء وحدها ولا الأفعال وحدها ، فيكون من الأسماء أو الأفعال . وأما أنه خالفة فلأنه رآه يخلف الفعل ، وينوب عنه فى الكلام.

ويمكن أن يضاف إلى سبب هذا الخلاف سبب آخر ، وهو أن قدامى النحويين — يغفر الله لهم — لم يلقوا بالا فى دراساتهم اللغوية إلى صلة اللغة بأصحابها ، وملازمتها لهم وهم يمرون بأطوار حياتهم ، كأنهم لم يتبينوا أنها الأداة التى تصور أحوال معيشتهم ، وتعبر عما يجيش فى صدورهم من مشاعر ، وما يدور فى عقولهم من خواطر وأفكار ، وأنها لذلك تتأثر حياتهم تقدما وتخلفا ونهوضا وتعثرا ، حتى أصبح من الأقوال الشائعة بيننا أن اللغة كائن حى ، أى أنها — لوثاقة صلتها بأهلها ، وشدة متابعتها لهم كيفما كانوا — توشك أن تكون مثلهم خلقا من خلق الله ، له ما للأحياء من أوصاف وسمات .

ولو أنهم — يرحمهم الله — ألقوا إلى ذلك بالهم فى دراستهم اللغوية لاستبانوا أن العربية ينبغى أن تكون فى حياتها قد أخذت على سنن الأحياء الأخر ، وتدرجت مع أصحابها فى مدارج النشوء والارتقاء حالا بعد حال ، فكانت أول أمرها يسيرة ساذجة ، لأنهم كانوا أول أمرهم يحيون حياة يسيرة ساذجة . ولما أن تقدم بهم الزمن ، وتحولت بهم الحال إلى طور آخر كانت حياتهم فيه أرقى ، ومطالب عيشهم أكثر — درجت معهم اللغة إليه ، لتصور حياتهم فيه ، فإذا لها إذ ذاك شأن غير الشأن : المفردات أوفر عددا وأدق تخصصا ، والأساليب أكثر تنوعا وآخذ بأسباب الافتنان .

وهكذا مضت تسايرهم على طريق الحياة ، وتتعرض لكل مايتعرضون له فى أثناء ذلك من أحداث وخطوب ، كدأب كل رفيقى رحلة جامعة ، لاسبيل إلى الفكاك منها أو القعود عنها ، فكان من أمرهم وأمرها مالابد أن يكون : جديد من شئون العيش ينشأ ، ويبلغ مبلغه المقدور من النمو وشيوع التداول ، وقديم من شئونه يبلى ويدركه الاضمحلال والفناء . ويكون لهذا وذاك عمل مطابق فى اللغة ، فإذا كلمات وأساليب تنشأ وتتداول قليلا أو كثيرا ، ومفردات

وأساليب تفنى وتندثر ، وأخرى يصيبها التحيُّف والانتقاص ، فلا يبقى من فصيلتها إلا قليل يشير إليها ، ولا يغنى عنها من الفناء شيئا ، إما لأن قومنا نهوا عنه ، وتبدلوا غيره به فنبذه الناس ، وتواصوا باجتنابه ، فخلت اللغة منه على تعاقب الأجيال ، وإما لأن دواعيهم إلى استعماله قد زالت فيما يزول من أمور العيش ، فأغفلوا ذكره ، وخلوا بين الأيام وبينه ، فطواه النسيان جملة حتى مانعرف عنه خبرا ، أو بقيت منه بقية مهجورة ، تتراءى فى بعض النصوص المطمورة هنا وهناك .

فإذا بدا لنا أن نرجع إلى اسم الفعل ، فندرسه ، ونقرن الفعل إليه فى دراستنا له . ونلقى بالنا إلى مابين اللغة والمتكلمين بها من صلة واشجة — فماذا عسى أن يكون ثمة من معالم ، وماذا عسى أن يكون لهذه المعالم من دلائل وإشارات ، ثم ماذا عسى أن يكون الرأى الذى يصح أن نخلص به فى اسم الفعل ومكانه من أنواع الكلمة ؟ .

وينبغى قبل أن نأخذ سبيلنا إلى هذه الدراسة أن نقدم بين يديها أمرين لها بها اتصال وثيق ، ولهما فى تقرير بعض مسائلها وتوضيح مايحتاج منها إلى توضيح — عمل مذكور .

فأما أحدهما فيتصل بنشأة اللغة ، وهو أن جمهورا من العلماء يرى أن مراحل حياه الطفل فى جانب مامن جوانبها تحكى مراحل حياة الجماعة البشرية فى هذا الجانب نفسه[١] . فالأطوار التى تمر بها لغة الأطفال يمكن — على هذا — أن تعد حكاية للأطوار التى مرت بها لغة النوع الإنسانى إبان طفولته .

وأما الآخر فيتعلق باسم الفعل نفسه ، وهو أنه — فى مادته — إما مرتجل ، أى ليس له أصل معروف من اللغة ، وإما منقول ، أى له أصل من اللغة يرد إليه ، أو ينقل منه .

ونبدأ القول فى المرتجل الآن ، فننظر فيه وفى الفعل معه ، ثم نتبعه بالقول فى المنقول ، إذ كان القول فى المرتجل أبعد مدى وأكثر تشعبا .

فاسم الفعل المرتجل يتألف فى أكثر الأمر من حرفين اثنين ، كصه ، ووى ، وها ، وربما تألف من ثلاثة كأف . وقد يسبق هنا إلى الخاطر أن هيهات وآمين من اسم الفعل المرتجل لأنه لايبدو أن لكل منهما فى معناه صلة بالمادة اللغوية التى تنسبه المعاجم إليها ، وهما مع ذلك خماسيان .

---

(١) نشأة اللغة عند الانسان والطفل : ١٣٧ ، ١٤٨

والواقع أن ثمة من القرائن مايوحى بأنها من المنقول ، فيروى أن أباحيوة[1] قرأ قوله تعالى : « هيهاتٌ هيهاتٌ لما توعدون » . برفع هيهات وتنوينه ، ويخرج ابن جنى قراءته هذه ، فيقول عنها فيما يقول : أخلصها اسما معربا فيه معنى البعد ، ولم يجعله اسما للفعل فيبنيه كما بنى الناس غيره . وقوله : « لما توعدون » خبر عنه ، كأنه قال : البعد لوعدكم ، كما يقول القائل : الخلف لموعدى[2] . — وهى عند المبرد ظرف غير متمكن ، أى غير متصرف ، أو غير معرب كما يقولون فى تفسيره[3] .

ويروى عن الحسن البصرى ، وجعفر الصادق أنهما كانا يقرأان (آمّين) بتشديد الميم ، وصفا من أم ، إذا قصد ، فالمعنى — على هذا — نحن قاصدوك ، ومقبلون إليك[4] .

وإذاً يمكن أن يعد هيهات وآمين من المنقول : الأولى من (هيهاة) المنونة المعربة ، والأخرى من (آمين) المشددة الميم ، كما نقل (بله) اسم الفعل من (بله) المصدر .

وشتّان يعده صاحب التصريح من المرتجل ، ولا أراه منه فى شئ ، فهو من شت فى اشتقاقه ومعناه ، مثله فى هذا وذاك مثل سرعان وبطآن .

ذلك هو اسم الفعل المرتجل فى عدة حروفه . وإذا قرناه إلى الفعل وجدنا الفعل فى تجرده — ثلاثيا أو رباعيا — لايقل عن ذلك شيئا ، وقد يصل بالزيادة إلى ستة أحرف .

والمعروف أن لغة الأطفال أوائل عهدهم بالكلام تتألف فى الأغلب من كلمات قصار ، وأنهم إذا حاولوا النطق بكلمة طويلة ، أو أريدوا على النطق بها — أعملوا فيها الحذف والانتقاص حتى تكون على مقدار المعهود فى لغتهم من كلمات . ويسمع أهلوهم ذلك منهم ، فلاينكرونه عليهم ، ولايعجلونهم عنه ، بل ربما استعذبوه ، وطابت نفوسهم به ، فجاروهم فيه كلما أرادوا أن يعلموهم الكلام ، أو يشجعوهم عليه ، إيمانا بسنة الطبيعة ، وانقيادا لحكمها المحتوم . فثمة إذاً شبه قريب بين ألفاظ اسم الفعل المرتجل ، وألفاظ الأطفال فى حداثة عهدهم بالكلام ، كل فى بنيته قليل الحروف .

---

(١) هو شريح بن يزيد الحضرمى الحمصى ، صاحب القراءة الشاذة ، ومقرىء الشام . توفى سنة ٢٠٣ هـ
(٢) المحتسب مصور .
(٣) شرح الأشمونى وحاشية الصبان عليه .
(٤) تفسير القرطبى : ١ : ١١٢ .

واسم الفعل بنوعيه يؤدى معنى الفعل كما تقدم ، وبعض المرتجل مع ذلك يقبل التنوين ، فإذاً هو فعل فى معناه ، واسم فى لفظه . وذلك ضرب من التخليط فى مفردات اللغة ، يدل على تخلف فيها وقصور ، ونحن لهذا نلمح له نظيرا فى لغة الأطفال ، إذ لايفرقون فى كثير من الأحيان بين المذكر والمؤنث فى خطاب أو إخبار . وهو إذاً أحق أن يرجع فى وجوده إلى عهد بداوة اللغة ، وأن يكون سمة من سمات حياتها فيه . كما أن تميز المفردات بعضها من بعض بما يمنع تشاركها فى الخصائص والتباس نوع منها بنوع — يدل على تقدم فى اللغة وارتقاء ، لايكونان إلا عن ملاحظة ونقد ، ثم عن ملكة تقدر على التدبر والعلاج . وهو إذاً أحق أن يكون فى عهد تقدم اللغة وأخذها من الحضارة اللغوية بنصيب .

وتتعدد اللغات فى اسم الفعل مالا تتعدد مثله فى الفعل ، فذكروا أن فى أف أربعين لغة ، وفى أوه ثمانيا ، وقرئت « هيت لك » بستة أوجه[1] . وتعدد لغات الكلمة الواحدة على هذا النحو فى لغة ما — يدل على مبلغ ما بين المتكلمين بها من تقطع وانعزال ، هيهات أن يكونا فى غير بداوتهم الأولى ، حين تنمو القبيلة وتتعدد أسرها ، فتتقسم أفخاذا وبطونا ، ثم لاتلبث أن تدفعها حوافز العيش والتشبث بالحياة إلى الضرب فى الأرض ، فترحل هنا وهناك ، ابتغاء الرزق ، فيرحل من يرحل ، ويقيم من يقيم . وهناك فى الأوطان الجديدة تعمل أحوال البيئة وأحداث الحياة أعمالها فى لغة المهاجرين على مر الأيام ، فتتحول عن أصلها قليلا أو كثيرا فى المفردات والأساليب وطرائق الأداء .

ويغلب ألايكون بين هؤلاء المهاجرين تواصل أو خلاط إلا لماما أو عبورا ، فمع البداوة — ولاسيما الأولى — يكون الاكتفاء والاستغناء ، ومع الحضارة يكون التواصل والتعاون ، واللقاء .

ويرجع بعض الأفعال فى أصله إلى بعض أسماء الفعل ، فقد قالوا : أوه تأويها ، وتأوه تأوها ، أى قال : أوه ، وقالوا : أفف تأفيفا ، وتأفف تأففا ، أى قال : أف ، كما قالوا : حبذه ، أى قال له : حبذا ، وبأبأ الطفل ، أى قال : بابا . ألا يعنى هذا أن الفعل الذى يرجع فى أصله إلى اسم فعل هو أحدث عهد بالحياة من اسم فعله ، إذ كان فرعا منه ، وحكاية له ؟ .

ثم إن الفعل يتغير زمنه ومعناه بإدخال تغيير معين فى بنيته ، فزيادة حرف من أحرف المضارعة فى أول الماضى تنقله من زمنه ومعناه إلى زمن المضارع ومعناه ، وحذف حرف

(١) اتحاف فضلاء البشر : ١٥٩

المضارعةمن المضارع ينقله من زمنه ومعناه كذلك إلى زمن الأمر ومعناه . وهو حين الإسناد تتصل به ضمائر تدل على المسند إليه فى إفراده وتثنيته وجمعه ، وفى تذكيره وتأنيثه . ولا كذلك اسم الفعل ، فهو يدل على الزمن بوضعه لابتغيير يدخل عليه ، فصه لاسكت ،ووى لأعجب ،وضع كل لمعناه ،وهوملازم له أبدا . وإذا أسند لم تلحقه الضمائر البارزة التى تقتضيها حال المسند إليه ، بل يظل على حاله مع كل مسند إليه أيا ماكان نوعه .

وتصرف الفعل على هذا النحو أمارة تقدم فيه ؛ لأنه ضرب من الافتنان والاختصار ، كما أن جمود اسم الفعل على هذا النحو أمارة أولية ونشوء فيه ؛ لأنه ضرب من التخلف ، والقصور .

أظن أنه لاعلينا بعد هذا كله إذا زعمنا أن اسم الفعل المرتجل أقدم عهدا فى حياة اللغة من الفعل ، عرف فيها قبله ، وعمل فى التعبير عمله ، ثم سلك مع غيره سبيل التحول والانتقال ، يستوفى الأحكام التى قسمت له فى بنيته ومعناه ، حتى استوى فعلا متميزاً على الصورة التى هو عليها الآن .

ذاً فأسماء الأفعال التى بين أيدينا ليست سوى بقية من الأفعال على حالها الساذجة الأولى ، قدر لها البقاء لأسباب تهيأت لها ولم تتهيأ لإخوة لها ، فأفلتت هى ناجية من الأحداث ، ومضت تعبر إلينا الأجيال والقرون . أما إخوتها فقد تقطعت بها الأسباب ، فتخلفت ، وأدركها الفناء ، كما أدرك ولايزال يدرك كثيرا من شئون الحياة .

هذا حديث اسم الفعل المرتجل ، أما اسم الفعل المنقول فله شأن غير الشأن ، وما أحسبه — فى نقله وفى المراد به — إلاضربا من تعديدالاشتقاق فى بعض ، وضربا من تنويع وظائف الكلمات فى بعض آخر . فنزال مثلا مشتق من نزل ، يزيد به عدد المشتقات منه ، وبله — فى الأصل — مصدر فعل متروك ، فاذا نقل منه إلى اسم الفعل صار له بذلك وظيفتان ، هو فى أولاهما معرب ، ومعناه معنى كل مصدر ، وهو فى الأخرى مبنى ، ومعناه معنى الفعل الذى تسمى به ، وناب عنه فى الاستعمال . ويقال مثل ذلك فى المنقول من حرف جر كإليك والمنقول من ظرف كدونك . وهذا التنويع فى وظائف الكلمات من أظهر سنن العربية ، وأكثرها شيوعا فيها .

والمعقول أن أسماء الفعل المنقولة لم تعرف فى اللغة إلا بعد ماعرفت أصولها التى نقلت عنها ، لأنها تؤدى معانى أتم من معانيها ، فكأنها تطور لها ، أو توليد منها . وحكم باب نزال

فى هذا كحكم أخواتها ؛ لأنه وإن طابق معناه معنى فعله — مأخوذ منه ، فحقه أن يكون تاليا له فى الوجود ، مثله كمثل كل مشتق سواه .

وابن جنى — على ماله فى اللغة من بحوث بارعة ، وآراء متميزة — يذهب فى اسم الفعل المذهب المأثور : أنه نبت بمعزل عن سنة النشوء والارتقاء ، وأن العرب وضعته كما وضعت غيره ليشارك بنصيب فى إثراء اللغة والوفاء بمطالب الافتنان فى التعبير ، وهذا مجمل مايقول عن أوجه هذه المشاركة :

١ — السعة فى اللغة ، فقد يصلح بعض أسماء الفعل أن يكون قافية فى بيت ، ولايصلح لها مسماه .

٢ — المبالغة ، فإنما هى عدول عن لفظ إلى لفظ ، أو جنس إلى جنس . فُوَضّاء أبلغ من وضئ ، لأنك عدلت عن وضئ إليه . ونِعْم أبلغ من نَعِمَ ، لأنك خرجت به عن معتاد حاله من التصرف إلى الجمود :

٣ — الإيجاز ، فأنت تقول للواحد : صه ، كما تقولها لغيره من المخاطبين (١) .

ويجئ بعده ابن يعيش ، فيغفل الكلام فى شرح المفصل عن أول هذه الأوجه ، كأنه لايرى رأى ابن جنى فيه ، ويقصر كلامه على الوجهين الآخرين ، ولكن فى إيجاز ، ودون زيادة أو خلاف :

والمقاصد التى يعزى إلى أسماء الأفعال أنها وضعت لتحقيقها من المقاصد اللغوية الكبرى ، وأسماء الأفعال أقل عددا ، وأهون شأنا من أن تشارك فيها بنصيب ذى بال . فهى سماعية إلا باب نزال ، وإلا المنقول من الجار عند الكسائى ، وقياس النوعين مع ذلك مقيد بشروط (٢) على أن الذى يعنينا هنا هو المسموع من العرب ، لأنها هى التى تحرت بوضعه أن يحقق المقاصد التى يقال إنها وضعته لتحقيقها .

وأنى لعشرين اسم فعل أو ثلاثين أو نحوها أن تعد عامل سعة فى اللغة ، ولو صلحت كلها دون مسمياتها أن تكون قوافى فى الشعر أو السجع ؟ وأين اسم الفعل فى هذا المجال من المشتقات مثلا فى كثرة عددها ، وتنوعها فى المعانى والأوزان ؟ بل أين اسم الفعل بأنواعه من مشتق واحد من هذه المشتقات ؟ .

(١) الخصائص : ٣ : ٤٦

(٢) انظر الهمع : ٢ : ١٠٦

وما مبلغ ماتحققه اسم الفعل من إيجاز فى الأسلوب ؟ إن الإيجاز الذى يعزى إليه لايكون إلا باسم فعل الأمر وحده ، أما غيره فهو ومسماه فى هذا سواء : أعجب مثل وى ، وبعد مثل هيهات . وقصارى ماتحققه اسم فعل الأمر – مع ذلك – من إيجاز هو خلوه من ألف الاثنين ، وواو الجماعة ، وياء المخاطبة ، ونون النسوة . وماقيمة إيجاز لا يغنى إلا عن ضمير يقوم فى بنيته على حرف واحد ؟ وأين هو من إيجاز الحذف فى كثرة أنواعه ومقدار مايغنى عنه فى الكلام ؟ على أن هذا الذى يسمى إيجازا فى اسم فعل الأمر لاينبغى – فيما أرى – أن يسمى إيجازا ، بل إخلالا ، لأنه يلبس المذكر بالمؤنث ، والمفرد بالمثنى والجمع . وما كان الإيجاز تعمية وتلبيسا ، ولكن غناء واكتفاء .

والمعروف عن الذهن فى إدراك الحقائق وتصور الأشياء – أنه يختزن معارفه – حقائق كانت أو صورا – مع الألفاظ التى وضعت لها ، لأن اللغة هى أداة الفهم والإفهام .

فإذا أراد واصف أن يصف شيئا يراه أو يتخيله – والوصف هو الذى يعنينا هنا – تداعت إلى ذهنه أوصاف الشئ الذى يصفه على حالها من القوة أو الضعف ، ومن القلة أو الكثرة ، ومع كل وصف اللفظ الذى يعرف من قبل أنه يعبر عنه ، ويدل على مبلغه منه : طويل للموصوف بالطول فى اعتدال ، وطوال مخفف الواو للعظيم الطول ، وطوال بشد الواو للمسرف فيه . يرد كلٌّ مع لفظه ابتداء ، دون تدرج من الوصف المقارب إلى الوصف المبالغ فيه ، كما يقول العلامة ابن جنى ، رحمه الله .

والواصف أو القائل أيا كان الفن الذى يقوله فيه لا أحسبه يتبدل – حين يتبدل – لفظا بلفظ أو أسلوبا بأسلوب ، ولا أحسبه يتلبث – حين يتلبث – عند لفظ أو أسلوب لداعية الانتقال والتدرج من مرتبة فى المعنى إلى مرتبة ، التماسا للمبالغة فيه ، ولكن لدواع أخر ، كالتذكر من نسيان ، والتيقن من ارتياب ، والاختيار من نظائر وأشباه ، أو نحو ذلك مما ليس للانتقال والتدرج معه مكان .

وإذا صح أن فى التعجب بصيغتيه الاصطلاحيتين عدولا عن الفعل فى معناه وتصرفه إلى إحدى صيغتيه فى معناها وجمودها – فإذا من العدول فى التعجب بغير هاتين الصيغتين ، من نحو قوله تعالى : « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم » ؟ وقولهم : لله دره فارسا ، فكل من الأسلوبين فى حال التعجب هو هو فى حال الاستفهام أو الأخبار ، وإنما جاءه . التعجب من المقام وقرائن الأحوال . وكذلك المبالغة فى نعم وبئس ، فإنها ليست من العدول

عن الصيغة الأصلية لكل من الفعلين فقط ، ولكن منه ، ومن نظم الأسلوب الذى يستعملان فيه على النحو المعروف .

ثم إن العدول إلى اسم الفعل إنما يوافق العدول إلى صيغتى التعجب ونعم وبئس فى اسم الفعل المنقول دون المرتجل . فالعدول فى المرتجل معناه ترك لفظ إلى لفظ ، وليس بين اللفظين اشتراك فى المادة ألبتة . أما العدول فى صيغتى التعجب وفى نعم وبئس فمعناه اتفاق اللفظين فى المادة واختلافهما فى الصيغة والهيئة

بقى أن القول بأن اسم الفعل عدول عن الفعل يقتضى أن يكون الفعل أسبق وجودا من اسمه ، لأن الفعل هو الأصل الذى يعدل عنه . ولو كان الأمر كذلك لوجب أن يخضع اسم الفعل لسنة الله فى خلقة كما يخضع لها غيره ، وإذاً يكون له التصرف والاكتمال ، وللفعل الجمود والقصور .

محاولة فى تقدير زمن استواء اللغة العربية الفصحى

للأستاذ محمد عزة دروزة

كنا قبل هذا بحثنا فى دلالة اللغة القرآنية على ما كان عليه العرب قبل الإسلام من رقى عقلى وثقافى وعلى شمول هذه اللغة فهما وكلاما فى عصر النبى (صلعم) قبل البعثة لجميع العرب أجمالا فى مختلف أنحاء الجزيرة وأطرافها .

وفى هذه النبذة محاولة فى تقدير زمن استواء اللغة الفصحى التى نزل فيها القرآن،وصارت قبل نزوله لغة العرب ، وبخاصة أهل بيئة النبى (صلعم) لتكون إضافة أوتتمة لذلك البحث .

لقد أصبح من الحقائق التى لا تقبل مراء أن ما ترويه الكتب العربية من نصوص عربية فصحى شعرا كان أم نثرا،أم كلاما عاديا لأناس عاشوا فى القرون القديمة فى شمال الجزيرة أو جنوبها لا يمكن أن يصبح شكلا وموضوعا بل ولأناس كثيرين عاشوا فى قرون أقرب عهدا . غير أن كون اللغة الفصحى لغة بعض أجيال العرب التى سبقت نزول القرآن بأمد ما بالإضافة إلى كونها لغتهم عند نزوله وقبيله هو أيضا من الحقائق التى لا تقبل مراء على ما شرحناه ، وأوردنا الدلائل عليه فى بحثنا السابق .

فهل يمكننا أن نعرف على وجه الدقة أو قريب منها متى استوت اللغة الفصحى وصارت كذلك ؟

هناك أولا : النقش المعروف بنقش نمارة الذى وجد فى خرابة قصر فى الحرة الشرقية من جبل الدورز على حجر قبر أمرئ القيس بن عمرو ملك العرب . وهذا نصه : (تى نفس مر القيس بن عمرو ملك العرب كله ذو أسر التج وملك الأسدين ونزرو وملوكهم ، وهرب محجو عكدى وجايزجى فى حبج نجرن مدينة شعر وملك معدو . ونزل بنيه الشعوب وكلهن فرسو لروم فلم يبلغ ملك مبلغه . عكدى هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ بكسلول بلسعد ذو ولده) . وقد حسب الأثريون والمؤرخون أن هذا التاريخ موافق لسنة ٣٢٨ ب م (١) .

وهناك ثانيا : نقوش سبئية وقتبانية وحميرية وجدت فى اليمن ، وثمودية ولحيانية وجدت فى أعالى الحجاز ، وتدمرية ونبطية وصفوية وجدت فى تدمر والبلقاء ومدائن صالح

---

(١) تاريخ العرب قبل الاسلام لجواد على ج ٧ ص ٢٧٣ وتاريخ اللغات السامية لإسرائيل ولفنسون ص ١٩٠ .

وجبل الدروز يخمن تاريخها بين القرن الأول بعد الميلاد إلى القرن الخامس ، وهذه نماذج منها :

(١) نقوش يمنية : (١)

(أ) آدم ملكن ، ذى سموى ، إله أمر بعل بين (٢) .

(ب) ملك سبا وذريدن ، وحضرموت ، ويمنت ، وأعربهم ، طودهم ، وتهامهم (٣).

(ت) بنصر وردا الهن بعلن سمين وأرضين (٤)

(ث) بحيل وردا ورحمة رحمنن ومسيحهو روح قدس ذى مزندن (٥)

(ج) تبارك سم رحمنن ذ سمين ويزرال والهمورب يهد . زهرد . عبدهو شهرم وأمهو وحشلتهو شمسم . وأولدهو (٦)

(ح) تبارك رحمنن ذ سمين .

(خ) شرحبيل — يكمل — ذو بعدن — زرعه — مرجم — حارث — مرثدا — ذو جدنم ذ شولمان — ذ شعبن — معد كرب — نعم — أبو كرب — أسعد — سعدلاه عيد ثعل . (٧) .

٢ — نقوش لحيانية : (٨)

(أ) أدق هصلم لذ غبت بملذ تحت بته خيامو . . . وشمع (٩)

(ب) ذ علم أفكل لت . (١٠)

(١) انظر تاريخ الجنس العربى لجواد على ج ٣ ص ١٣٦ وبعدها .

(٢) آدم ملكن : بمعنى عبد الملك : ذى سموى : بمعنى ذو السماء أو رب السماءا اله امر : الرب الأمر ، بعل بين : رب مدينة بين .

(٣) واعربهم : اعرابهم . طودهم : جبالهم . تهامهم : سهولهم .

(٤) ردا هى من رده الفصحى ومعنى الجملة : (بنصر ومعونة الاله رب السماوات والأرضين) .

(٥) بحيل هى من حول الفصحى ومعنى الجملة : (بحول ومعونة ورحمة الرحمن والمسيح روح القدس ، كتب هذا ذو مزندن .

(٦) الجملة بالفصحى : (تبارك اسم الرحمن اله السماوات واله إسرائيل واله اليهود الذى ساعد عبده شهر ، وأمه وزوجته شمس وأولاده) .

(٧) هذه أسماء زعماء واقيال قرئت على نقش لأبرهة الحبشى .

(٨) تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ج ٧ ص ١٤٥ وبعدها .

(٩) بالفصحى : قدم الصنم لذى غابة (معبود) بملاذ تحت بيته وخبائهم . . وسمع .

(١٠) بالفصحى : هذا علم كاهن اللاة .

(ت) لعذرال وسفره ملطس قينه (١)

(ث) عبد خرج بن زدغوث بنى هكفر له واورثه هكفر ذه كله وأخذ همشبرن سنت ثتن لتلمى بن‌هناس (٢)

(ج) مررة وحضرة بنو نضر ، أخدو هقبر ذه هم وأخوهم (٣)

(ح) وأشهد كالهم . . لهم وشهد وهارخت له بن أمر (٤)

٣ — نقوش ثمودية (٥) :

(أ) قنص أسد (٦)

(ب) رب رضو وود أن سرت مكفر (٧)

(ت) هلهى أت م تمعزز (٨)

(ث) دنه قبور صنعه كعبو برحرتت للقض برت عبد منوتى . امه ذى هلكت فى الحجر شنت ماه شنين وترين . يرح تموز . ولعن مرى على من يشنا القبور دا ومن يفتحه حشى يلده . ولعن من يغير دا على منه (٩)

(ج) لسلمت بلو دوعى وضحن (١٠)

(ح) شهدن يسلم عى (١١)

---

(١) بالفصحى (هذا الخط لعزريل . كتبه ملطس عبده) عبده مرادف لقينه فى الفصحى أيضا .

(٢) بالفصحى : (عبد خرج بن زيد ، غوث بنى القبر له ولورثته ، هذا القبر كله . وأخذ المقبرتين فى السنة الثانية لتلمى بن هناس) .

(٣) بالفصحى : مرة وحضرة بنو نصر أخذوا هذا القبر هم وأخوهم .

(٤) بالفصحى : (اشهدهم كلهم . . . وشهدت وارخت له ابن الأمير) .

(٥) تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ج ٧ ص ١٨٨ وبعدها .

(٦) فسر المؤلف الجملة بأن أسد اصطاد .

(٧) معنى الجملة (بحماية الالهين : رضو وود انا سرت من الكفر .

(٨) بالفصحى : يالهى انت تيم عزيز هذا أو هنا .

(٩) بالفصحى : (هذا القبر صنعه كعب بن حارثة للقيض بنت عبد مناة أمه التى هلكت فى الحجر سنة مئة وأثنتين وستين من شهر تموز . ولعن رب العالمين من يغير هذا القبر ومن يفتحه باستثناء أولاده ولعن من يغير المكتوب أعلاه) .

(١٠) بالفصحى : (للسلامة من البلاء والمرض وضحنا) .

(١١) بالفصحى : شهدنا بسلامته من المرض ، وكلمة (العى) تستعمل فى مقام المرض بالعامية ومنها عيان ولاشك أن اصلها فصيح .

(خ) لعوذ بن ملكه أخذ (١)

(د) تيم بن عبنى ووجم على خلله (٢)

(ذ) لضب بن عصم دال تم ووجم على خلدا أخته متت ترحت عبس ورغمت من ممت (٣)

(ر) لحزم وتشوق أل عمت (٤)

(ز) هصلم عن بغجعن (٥)

(س) وهب لاة — زيد — غوث — سعد لاة — هنالاة — أوس لاة — أمرايل — سعد ملك — أسعد — فهد (٦)

٤ — نقوش صفوية (٧) :

(أ) ووجم عل أبه قتل فهلت ثار مشنأ (٨)

(ب) لاذنت بن ورد بن نعير ووجع على أشيعه حر بن فسلم بن أذنت (٩)

(ت) لبرد بن أصلح بن أبجر وشتى هدر وربح هات سلم (١٠)

(ث) لشمت بن لعثمن بن شمت بن شرك بن أنعم بن لعثمن . وجم عل أمه وعل دده وعل خاه وعل عم وعلى آنعم قتله خل صبح فوله عل بن خله ترح . ورعى هضان ورحض تبر وخله شناف هلت سلم ووجد أثر أخه فنقم (١١)

---

(١) بالفصحى (أخذ هذا لعوذ بن ملكة) .

(٢) بالفصحى (تيم بن عينى وجم « حزن » على خليله) .

(٣) بالفصحى : هذه الكتابة لضب بن عصم من ال تيم وجم على أخته خلدة ماتت حزنا وعبس عليها، ورغت على الموت .

(٤) حزم تشوق إلى عمته .

(٥) أيها الصنم أعنا على الفاجعة .

(٦) أسماء مختلفة .

(٧) العرب قبل الإسلام لجواد على ج٧/٢١٩ وبعدها وتاريخ اللغات السامية لإسرائيل ولفنسون ص١٨٤ وبعدها .

(٨) وجم من الوجوم الفصحى بمعنى حزن على أبيه القتيل فيالاة أثار من شأنه (من عدوه) .

(٩) هذه الكتابة لأذينة بن نعير توجع على (اشياعه) الذين سقطوا فى الحرب ومنهم مسلم بن اذينة .

(١٠) هذه الكتابة لبرد بن اصلح بن ابجر . وشتى فى هذه الديار وربح فيالاة سلمه .

(١١) هذه الكتابة لشامت بن عثمان بن شريك بن أنعم بن عثمان وجم . (حزن) على أمه وعلى عمه وعلى خاله وعلى عم انعم . . قاتله خال صباح فوله (ذهل) على ابن خاله وترح (حزن) ورعى الضأن واغتسل بتبر (اسم مكان) وخاله شناف فيالاة سلم ووجد أثر أخيه .

(ج) لأنعم بن فحش وغنم سنت حرب نبط (١)

(ح) لنصر آل بن حجر هخطط وحضر هدرفه اثغ سلم وقرص قعصن وفر (٢)

(خ) ووجم على أخته وبنى هرجم سنت نجى منمرت هسلطن على أل عوذ (٣)

(د) لأنعم بن أنف بن جرم أل ووجد سفر أنعم فنجح ورعى هابل مرق ، نبط حوذ (٤)

٥ — نقوش نبطية (٥) .

(أ) دنه نفشو فهرو بن ربو جديمة ملك تنوح (٦)

(ب) بسم الله شرحو بر مع قميو بر مر القس وشرحو بر سعد ووسترو وشريحو (٧)

(ت) دنه أربعنا دى عبد محلمو وعد يو وحورو عل علت بشنت تريتو لربال ملكا ملك نبطو (٨)

(ث) بيت أسدو ألها له معينو سنت سبع لهدرنيس (٩)

(ج) دنه مسجدا ادنه بنه وعبد (١١)

(ح) لعن دوشرا كل من دى يقبر أدنه (١١)

(خ) تبركه قدم دشرا (١٢)

---

(١) هذه الكتابة لأنعم بن فحش ، وغنم سنة حرب النبط . فانتقم له .

(٢) هذه الكتابة لنصر بن حجر هخطط « الخط » حضر فى هذه الديار فيا اثغ (اسم) معبود السلام . وقتل قعصن وفز .

(٣) حزن على أخته وبنى الرجم (القبر مثل الرجم) سنة نجا من غارة السلطان وحل على أل عوذ .

(٤) هذه الكتابة لأنعم بن انف بن جرم ايل وجد خطأنعم فنجح ورعى الابل سنة مروق النبط الذين جاءوا هنا.

(٥) العرب قبل الإسلام لجواد على ج ٧ ص ٢٧١ وبعدها .

(٦) هذا قبر فهر بن شلى مربى جذيمة ملك تنوخ ، واستعملت نفش بمعنى قبر .

(٧) هذه أسماء استعمل فيها كلمة « بر » بدلا من « ابن » ويعرف هذا النقش بنقش زيد وقد وجد معه ترجمة يونانية وسريانية عرف أنه كتب سنة ٥١٢) .

(٨) هنا اربعنا بناه محلم وعدى وحور على المذبح فى السنة الثانية لحكم ربل ايل ، (رئبال) ملك ملوك النبط .

(٩) بالفصحى : بيت أسد الاله اله معين سنة سبع لحكم القيصر هدريانوس .

(١٠) بالفصحى : هذا مسجد بناه وعبد فيه .

(١١) بالفصحى : لعن ، والشرا (معبود) كل من يدفن فى هذا القبر

(١٢) باركه قدام ذى الشرا .

(د) هلكت فى الحجر وشنة ماه وشيتو وترين يبرح تموز ولعن مرى علما من يشنا أقبور دا ومن يفتحه حشى ولده ولعن من يغير دا على منحه (١)

(ذ) دنه قبرادى عبد عذ بر كهيلو بر الكسى لنفشه ويلده وأحره ولمن دى ينفق بيده كتب تقف من يدعذ قيم له ولعن دى ينتن ويقربه يبرح نيشن شنه تشع لحرتت ملك نبطو رحم عمه ولعنو ذو شرا ومنوتو وقشيه ، كل من دى يزين كفرا دنه أو يزين أو يرهن أو ينتن أو يوجر أو يتالف علو هى كتب كله أو يغير به أو يشر لهن لمن دى علا كتبت وكفرا وكتبه دنه حرم كحليقت حرم نبطو وشلمو لعلم علمين (٢)

(ر) أسماء ملوك الأنباط المقروءة على نقودهم : (٣)
حارثت (حارثة) — أوبادة (عبادة) — رب أيل زدايل (زيدايل) — ملكو (مالك) حلدو — شقيلة .

— نقوش تدمرية : (٤)

(أ) بريك شمه لعلما ورحمنا طبا وعنه (٥)

(ب) لارصو ولعزيزو الهيا طبيا (٦)

(ت) لمرا عليا طبا ورحمنا مودا معنى بر ملكو ربابر معنى راوما على حيوهى وحى بنيهى وأخيهى يبرح شبط شنت (٧)

(١) ماتت فى الحجر سنة مئة وستين واثنتين بشهر تموز . ولعن رب العالمين من يعتدى على هذا القبر ومن يفتحه عدا أولاده ولعن من يغير هذا على منحاه (كيفه وهواه) .

(٢) هذا النقش من العرب قبل الإسلام لجرجى زيدان ص ٩٥ وهذا مؤداه بالفصحى : « هذا هو القبر الذى بناه عوذ بن كهيل بن القس لنفسه وأولاده وأعقابه ولمن يكون فى يده كتاب من يد عوذ يبيح له ولاى واحد يخوله عوذ فى حياته ان يدفن فيه . فى شهر نيسان السنة التاسعة للحارث ملك الانباط محب شعبه، ولعن ذو الشرا وملومناة وقيس كل من يبيع هذا القبر أو يشتريه أو يرهنه أو يهبه أو يؤجره أو ينقش عليه شيئا آخر أو يدفن فيه أحدا إلا الذين كتب أسماؤهم أعلاه ، أن القبر وما كتب عليه حرم مقدس حسب القاعدة التى يقدسها الانباط والسلافيون إلى ابد الآبدين .

(٣) العرب قبل الإسلام لجرجى زيدان ص ٨٦ .

(٤) العرب قبل الإسلام لجواد على ج ٧ ص ٣٢٦ وبعدها .

(٥)بالفصحى : لمن بورك أسمه للابد الرحيم الطيب المعين .

(٦) لا رصوولعز يز : الإلهين إلا لاهين الطيبين .

(٧) لرب العالمين الطيب الرحيم شكر معن بن مالك الأكبر بن معن رؤوم لحياته وحياة بنيه وأخوته بشهر شباط سنة .

(ث) أسماء ملوك تدمر المقروءة على النقود والآثار: أذينت (أذينة (خيرن خيران) معني معن — أو معين — زبي — وهبلاه.

(ج) اله نصيبنا على عزا ومرا بيتا عيد وهب الهى شيرا (١)

(ح) ترتن عاوتا الن عبد عيدو وبرعنموبر سعدلاه، نبيطنا روحيا دى هوا فرس بحيرتا وبسيتا عنا لشيع القوم ألها طبا وشكرا (٢)

• • •

ونكتفي بما تقدم مع التنبيه على أن هناك نقوشا كثيرة من باب ذلك، ونقول بأنه مع مافى النقوش المختلفة فى أزمنة كتابتها وفى أمكنة كتابتها من ألفاظ بل ومن تراكيب عربية فصحى أو ما يقرب منها فإنهـا لا تعد بطبيعة الحال عربية فصحى من نوع عربيـة القرآن أوما يقرب منها. وهذا يعني أن أى نص عربي فصيح من هذا النوع أوما يقرب منه ينسب إلى إناس عاشوا قبل القرن الخامس بعد الميلاد لا يمكن أن يكون صحيحا سواء أكانوا من الحجاز أم من اليمن أم من نجد فضلا عن العراق والشام.

وهناك نقش عرف بنقش حران،وجد على حجر فوق باب كنيسة حران فى منطقة اللجا شمال جبل الدروز هذا نصه :

« أنا شرحبيل بن ظلمو بنيت ذا المر طول سنة ٤٦٣ بعد مفسد خيبر بعم » وقد وجد مع النص عبارة يونانية جاء فيها ما ترجمته : (أسس شرحبيل بن ظالم سيد القبيلة مر طول ماريوحنا فى سنة اربعماة وثلاث وستين من الأند قطية الأولى . ليذكر الكاتب) وقد حسب

---

(١) بالفصحى : هذا نصب للعزى ورب البيت صنعه وهب الله قائد القافلة .

(٢) بالفصحى : هذان المذبحان صنعهما عبيد بن غنم بن سعدلا (سعد الله) النبطى الروحى الفارسى فى معسكر الحيرة وفى ثكنة عانا لاله القوم الطيب المشكور .

(إن بعض المستشرقين لا يسلكون النصوص التدمرية بل ولا النبطية فى سلك النصوص العربية ويقولون: إنها آرامية . ونعتقد أن فى هذا شيئا من الغلو بقطع النظر من كون الآرامية شقيقة من شقائق العربية . فالألفاظ التدمرية والنبطية هى مشابهة للألفاظ اللحيانية والثمودية بل واليمنية ، والدراسات التاريخية تفيد أن حكام الانباط وتدمر وقبائلهم هم من موجات عربية جديدة طرأت على بلاد الشام فى عهد العروبة الصريحة فى أواسط الألف الأول قبل الميلاد المسيحى . وكل ما يمكن أن يصح انها متأثرة شيئا ما بالآرامية التى كانت لغة أكثرية سكان بلاد الشام) .

أنظر تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ج ٧ ص ٢٧١ وبعدها، و ٣٢٦ وبعدها، وج ٣ ص ٥ وبعدها و ٧١ وبعدها ، والجزء الخامس من كتابنا تاريخ الجنس العربي ص ٣٢٩ وبعدها وص ٣٥٦ وبعدها . والعرب قبل الإسلام لجرجي زيدان ص ٨١ وبعدها و ٩٨ وبعدها . على أن هذا الأمر لا تأثير كبير له على ما نحن فى صدده. لأن فى النصوص الأخرى ما فيه الغناء .

المؤرخون أن هذا التاريخ يوافق سنة ٥٦٨ ب م (١) . والنص فصيح صحيح مئة بالمئة ومعنى ذلك أن العربية وصلت إلى استوائها الفصيح ، وانتشرت حتى كانت كذلك فى بلاد الشام قبل أمد ما من هذا التاريخ .

وهذا نقش آخر روى جرجى زيدان أنه كان مكتوبا على صدر دير فى الحيرة هذا نصه : « بنت هذه البيعة هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر الملكة بنت الأملاك وأم الملك عمرو بن المنذر أمة المسيح وأم عبده وبنت عبده فى ملك ملك الأملاك خسرو أنو شروان فى زمن ما افرايم الأسقف. فالإله الذى بنت له هذا الدير يغفر لها خطيئتها ، ويترحم عليها وعلى ولدها ، ويقبل بها وبقومها إلى أمانة الحق ويكون الله معها ومع ولدها الدهر الداهر » (٢) . وعهد عمرو بن هند يصادف أوائل النصف الثانى من القرن السادس بعد الميلاد . وهذا يعنى أن النقش كتب فى نفس الظرف الذى كتب فيه نقش حران . ويعنى أن اللهجة العربية الفصحى وصلت كذلك إلى بلاد العراق قبل أمد ما من هذا التاريخ .

فإذا لم يكن هناك نصوص مدونة أخرى فيها صـــور من اللغة الفصحى عائدة إلى ما قبل الإسلام يقينية العلم فالذى نعتقده أن بعض الشعر الجاهلى الذى حفظ وروى ودون بعد الإسلام يمكن أن يكون من ذلك، إذا كان مما ينسب إلى أناس عاشوا فى القرن الخامس وبعده .

ومهما صح أن يكون مما روى من هذا الشعر منحولا ومصنوعا فإنه لا يمكن الا أن يكون بعضه بل كثير منه صحيحا فنسج على منواله . وقد قصرنا الكلام على الشعر مع أن هنـــاك نثرا فصيحا بليغا مأثورا عن أناس عاشوا فى القرن الخامس وما بعده ؛ لأن الشعر هو الذى يمكن أن يكون قد حفظ وروى بنصه دون النثر . ومن أقدم من ذكر من شعراء الجاهلية ويصدق عليه هذا الوصف المهلهل، وبشر بن أبى خازم وزهير بن جناب وأمرؤ القيس وطرفه بن العبد، والحارث بن حلزة، وعمرو بن كلثوم والمرقش الأصغر والنابغة الذبيانى، وزهير بن أبى سلمى، وغيرهم وغيرهم . والشعر المروى عن هؤلاء وان يكن

(١) تاريخ اللغات السامية ص ١٩١ – ١٩٢ وحم هى عام والأرجح أن أكثر الكلمات العربية القديمة كانت تكتب بدون حروف مد ومن ذلك ملك فى مقام مالك وكتب فى مقام كتاب وغيرها . ورجح المؤرخون أن مفسدخيبر هو غزوة غزاها أحد ملوك الغساسنة لخيبر ذكرها ابن قتيبة فى كتاب المعارف . ومن الجدير بالذكر أن النقش بحروف من نوع الحروف العربية القديمة الإسلامية .

(٢) العرب قبل الإسلام ص ٢٢٥ ولا يذكر المؤلف بيانا آخر عن هذا النقش ولا عن مكان وجوده اليوم ، ولا المصدر الذى روى عنه .

متفاوتا فى الجودة والبلاغة فهو فى مستوى متقارب من حيث الفصاحة الفصحى . وهم من أنحاء مختلفة من جزيرة العرب إلا اليمن فإنه لم يرو لشاعر يمانى مقيم فى اليمن شعر فصيح فى هذه الحقبة .

وقد يصح القول والحالة هذه أن اللغة الفصحى أخذت تسير نحو الاستواء بعد القرن الرابع ووصلت إلى مستواها فى أوائل القرن السادس ، ثم بلغت ذروتها فى أواخر هذا القرن حيث نزل بها القرآن المجيد . ولما لم ترو الروايات مايستحق الاعتبار من نصوص شعرية ونثرية من أناس مقيمين فى اليمن ، واقتصرت على نصوص شمالية نجدية وحجازية ، فقد يصح أن يضاف إلى تلك النتيجة أن استواء الفصحى وبلوغها الذروة فى الشمال قد تم فى الجنوب مع تقرير كون الفصحى كانت لغة الجنوب كلغة الشمال قبل البعثة النبوية بأمد ما . على ما ذكرناه وأوردنا الدلائل عليه فى بحثنا السابق . والله تعالى أعلم .

القومية العربية فى شعر الجارم

للدكتور احمد الحوفى
أستاذ الأدب العربى بكلية دار العلوم

١ – لقد قضى الشعراء فى العصر الحديث ردحا من الدهر ، يتجاوبون بأهازيج الخلافة العثمانية ، وأرّث حماستهم لها أنهم وجدوا الدول الغربية تكيد أشد الكيد للإسلام وشعوبه فى حملاتها على تركيا وعلى الولايات الإسلاميـــة الخاضعة لها . وهالهم أن الدول الغربية تبيت الشر للخلافة ، وتتطلع إلى اقتسام ولاياتها ، وتحرض المسيحية منها على الإنفصال والاستقلال .

وقد تكشف هذا الشر فى مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ م إذ ا جتمع لحل مشكلات تركيا فى البلقان ، فاذا به لا يسفر إلا عن تمزيق الولايات وابتلاعها .

ثم بدأت المطامع تتحقق ، فاحتلت إنجلترا جزيرة قبرص ، واغتصبت الروسيا بعض ممتلكات تركيا على البحر الأســود ، وأجبرت تركيا على التخلى عن رومانيـــا والصرب واحتلت فرنسا تونس سنة ١٨٨١ م،وبعد ذلك بعام واحد نصبت انجلترا أحابيلها لاحتلال مصر ، غير عابئـــة بمعاهدة لندن ١٨٤٠ م ، ثم هاجمت إيطاليا طرابلس سنة ١٩١١ م وأرغمت تركيا على التخلى عنها سنة ١٩١٢ م لتفرغ لثورات فى البلقان عاتية .

كان الرد الطبيعى على هذا العدوان المتكرر أن يؤيد المستنيرون الخلافة . وأن يناصروا آل عثمان وأن يتهموا أوربا صادقين بأنها تجددها حربا صليبية ثانية ، وأنها لا تصوب ضرباتها لتركيا وحدها ، بل تصوبها إلى الإسلام ممثلا فى الخلافة الإسلامية وفى بنى عثمان .

ولم يجد الساسة والأدباء فى ذلك الوقت تنافيا بين العاطفة الدينية والعاطفة الوطنيـــة بل وجدوا فى ارتباطهم الدينى سلاحا يغلون به الإستعمار الأوربى الطاغى ، كما نتبين من دراسة الأدب فى مصر وسورية والعراق وشمالى إفريقية. إلا قلة من الأدباء كانت لهم نزعات فردية خاصة .

٢ – لكن المستنيرين من العرب لم ينسوا فى هذا الخضم أنهم أصحاب قومية يجب أن تنفرد ، فبدأ نزوعهم هذا يستعلن منذ أواخر القرن التاسع عشر ، مطالبا بحقوق العرب ومثيرا عزائمهم مسلمين ونصارى إلى أن يتحدوا، ليكون لهم كيان خاص فى نطاق الخلافة فنشأت جمعيات شتى لتحقيق هذا الغرض ، منها جمعية حفظ حقوق الملة العربية سنة ١٨٨١ م

والجمعية التى انعقدت فى باريس سنة ١٨٩٦ من شباب العرب والترك ، ودعت إلى أن يحكم الولايات العربية حكام من العرب مستقلون فى ظل الخلافة .

ثم صدر الدستور العثمانى ١٩٠٨ م ، فحقق للعرب بعض ما يريدون ، إذ انتخب من الأقاليم العربية نواب يمثلون العرب بالاستانه ، وكان عددهم يزيد على ربع أعضاء المجلس ، فرأى أحرار العرب فى الدستور كفالة لحريتهم ، فانطلقت ألسنتهم من عقالها ، وانفلتت أقلامهم من أغلالها ، وتنفس الذين كانوا يضيقون بالإرهاب والاستبداد فازداد العرب يقظة وإدراكا لحقوقهم المسلوبة ، وازدهاهم أنهم ورثة مجد عظيم يجب أن يبتعثوه ، وصدرت صحف عدة فى العواصم العربية ، كان لها تأثير عظيم فى إيقاظ الرأى العام وبث روح القومية العربية .

٣ — ثم تبين العرب أن أقطاب العهد الجديد يسيرون فى الحكم كسابقيهم ، فيعززون التركية ، ويقاومون العناصر الأخرى وجعلت الصحافة التركية تكشف عن نوايا الأتراك وتنال من العرب ، فانبرت الصحف العربيـــة ترد على التهجم بمثله ، ونظم الشعراء من الترك ومن العرب عدة قصائد ، وكان فى هذا الصراع إذكاء للقومية العربية .

ونجم عن هذا الشعور أن انفض العرب عن تأييد الاتحاديين ، وشرعوا ينشئون جمعيات عربية جديدة فى عواصمهم بالقاهرة ودمشق وبيروت وبغداد وفى الاستانة نفسها ، لتعزيز شأن العرب ، والدفاع عن حقوقهم ، والمطالبة بتسويتهم بالترك فى الوظائف والأعمال .

وكان لهذه الجمعيات أثرها القوى فى بعث الشعور بالقومية العربية ، والدعوة إلى حكم عربى داخلى ، والهتاف بتعاون العرب على ما فيه خيرهم ، وناصرتها جرائد شتى بالأقاليم العربية .

٤ — وقد اصطلى العرب بنار الاستعمار ، ثم اكتووا بخطر الصهيونية ، فتعالى هتافهم بالقومية ، ودوى صوتهم بالوحدة ، إذ أيقنوا أن وحدتهم حصن لهم يدرأ عنهم المخاطر والحتوف .

ثم قامت ثورة مصر فى يولية ١٩٥٢ ، فتبنى الرئيس جمال عبد الناصر تلك الدعوة هتف بها . وأعلى من شأنها ، وكافح فى سبيلها ، فالتفت الأمة العربية من حوله ، وسانده بعض الحكام فى كفاحه ، وداور بعضهم وناور ، ومازالت الوحدة تشق طريقها فى تؤدة وأناة وإصرار .

والحق أن الأدباء كانوا من السباقين إلى رفع اللواء ، وإلى التغنى بالقومية ، والهتاف بالوحدة المنشودة ، لأنهم يصدرون عن نفوس حرة مبرأة من المطامع والأهواء، ولأنهم يعبرون عن عواطف الأمة العربية وآمالها ، على حين أن كثيرا من الساسة كانت تسيطر عليهم أهواؤهم ومخاوفهم من الوحدة فصاروا يعرقلون الفكرة ، أو يرجعون بها إلى الوراء أكثر مما يدفعونها إلى الأمام .

دعائم القومية فى شعر الجارم

عاش الجارم فى هذا الجو إلى سنة ١٩٤٩ فتأثر به ، وكان له صوت مسموع فى إيقاظ القومية والدعوة إلى الوحدة المرتجاة

وأحسب أن كثيرا أو قليلا من الناس يغمطون جهاده فى هذا المجال ، تعصبا عليه ، أو تقصيرا فى دراسة شعره ، حتى إن بعضهم ينكر أنه كان من الشعراء الذين لهجوا بالقومية العربية ، وأشادوا بها ، وآزروها ، وهتفوا بالوحدة ، ودعوا إلى ضرورتها ، وشدة الحاجة إليها ، وتغنوا بآثارها . وفى الفقرات التالية بيان من جهوده فى مجال القومية العربية ، وردود على ذلك الاتهام .

(١)

فهو يهتف باللغة العربية الفصحى ، رباطا وثيقا من روابط القومية ، يكفل وحدة الثقافة ، ويحقق التفاهم ، ويوحد المشاعر والوجدان .

ولهذا هش لانعقاد المؤتمر الطبى بالقاهرة سنة ١٣٥٨ هـ (١٩٣٩ م) يوم الوقوف بعرفة ، ورحب بأعضائه ، فصورهم إخوة وفدوا إلى مصر فوجدوا لهم إخوة ، لأن اللغة الفصحى ربطتهم جميعا ، ووحدت وطنهم فلا حدود ولا سدود .

أيها الوافدون من أمم الشر	ق وأشباله الأباة الصِّيد
اهبطوا مصركم بها من قلوب	شفها حبكم وكم من كبود
قد رأينا فى قربكم يوم عيد	قرنته المنى، إلى يوم عيد
إن مصرا لكم بلاد وأهل	ليس فى الحب بيننا من حدود

جمعتنا الفصحى فما من وهاد ... فرقت بيننا ولا من نجود
يصل الحب حيث لاتصل الشـ ... ـمس ويجتاز شامخات السدود

ونوه بالوسائل الثقافية التى تقرب بين الأخوة ، وتصلهم بصلات من الود والوفاء ، وتسفر بينهم وتوحد مشاعرهم ، فقال فى التنويه بأثر الإذاعة فى إيقاظ العرب وتقويتهم ومدهم بغذاء موصول :

تعالىْ نطير بريش الأثير ... ونعلو به حيثما يعتلى
نمر كما مر طيف الخيال ... ألمّ لماما ولم يحلل
فبينا نحدث أهل الحجاز ... إذا صوتك العذب فى الموصل
نحيى بنى العرب الأوفياء ... ونسمعهم غَرَدَ البلبل
أولئك قومى بناة الفخار ... وزين المحافل والجحفل
ولولا الإذاعة عاش الكرام ... حُماة العروبة فى معزل

وهتف بالعرب أن يجدوا فى التسلح بالعلم ، وأن يوحدوا المناهج الدراسية ويقربوا بينها لينشأ فتيانهم متقاربين أو متوافقين فى ثقافتهم وميولهم ، وأهاب بهم أن يعنوا بلغتهم ؛ لأنها عنوان وحدتهم فقال :

بنى العروبة مُدوا للعلوم يدا ... فلن تقام بغير العلم أركان
جمعتم لشباب الشرق مؤتمرا ... بمثله تزدهى الفصحى وتزدان
فقربوا نهجهم فالروح واحدة ... وكلهم فى مجال السبق أقران
وحببوا لغة العرب الفصاح لهم ... فان خذلانها للشرق خذلان
قولوا لهم إنها عنوان وحدتهم ... وإنهم حولها جند وأعوان

(٢)

واعتز بوحدة الدم وبوحدة الوطن ، داعيا إلى وحدة العرب ، لأنهم إخوة يجرى فى عروقهم دم من عدنان أو من قحطان ، وهم يقيمون فى وطن محدود المعالم ويشتركون فى تاريخ عريق ومجد باذخ ، ولن يتنافروا لاختلاف الدين لأن السماحة التى يحض عليها الإسلام وتدعو إليها المسيحية ، والأخاء الذى وثق الصلات بين أتباع عيسى ، والوحدة

التى أظلت العرب بضعة قرون من الخليج إلى المحيط ، جعلت الهلال والصليب رمزين مختلفين مظهرا ومتآلفين حقيقة ، ولهذا جمع الله العرب ووحدهم، فلن يستطيع الاستعمار، ولن تستطيع الأهواء أن تفرقهم قال الجارم :

بنى العروبة إن الله يجمعنا — فلا يفرقنا فى الأرض إنسان
لنا بها وطن حر نلوذ بـــه — إذا تناءت مسافات وأوطان
غدا الصليب هلالا فى توحدنا — وجمع القوم إنجيل وقــرآن
و لم نبال فروقا شتتت أممـا — عدنان غسان أوغسان عدنان
أواصر الدم والتاريخ تجمعنا — وكلنا فى رحاب الشرق أوطان

وردد وحدة الجنس والتاريخ فى قوله لسكان العراق ممثلين فى بغداد :

بغداد إنا وفد مصـــــــر نفيض بالشوق الأكيد
أهلوك أهلونا وأبنـــــاء العشيرة والجــــــدود

وباعث من عقيدته أن الوطن العربى واحد ، وأن فلسطين فلذة من قلبه أعتدى عليها شذاذ الآفاق ، أمضه الحزن ، فأسى للنكبة أسى أسال دموعه ، واعتصر قلبه ، وذكره بنكبة مثيلة لها من قبل هى نكبة العرب فى الأندلس ، فتحسر على عهد صلاح الدين ، وجهر فى وجه الصهيونية ، وأعوانها بأنهم دخلاء أفاقون ، وأنذرهم بأن الأعتداء على فلسطين كارثة لا طاقة لنا بالصبر عليها ، ولابد من استردادها ، لأنها من تراث الآباء الأعزة :

قلبى وفيض دموعى كلما خطرت — ذكرى فلسطين خفاق وهتّان
لقد أعاد بها التاريخ أندلسا — أخرى وطاف بها للشر طوفان
ميراثنا فى فتى حطين أين مضى — وهل نهايتنا يُتم وحرمان ؟
ردُّوا تراث أبينا مالكم صلة — به ولا لكم فى أمرنا شان
مصيبة برم الصبر الجميل بها — وعز فيها على السلوان سلوان

(٣)

على أن من دعائم القومية وحدة الوجدان ، والمشاركة فى الأفراح ، وتقاسم الآلام والأتراح ، لأن العرب إخوة يتقاسمون السراء ، ويتآزرون فى الضراء :

ولقد صور الجارم المشاركة الوجدانية فى عدة صور ، واحتفى بتصويرها بين المدن والأنهار والجبال والأشجار والآثار ، ليؤكد الود والإخاء والوفاء ، لأنها ماثلة فى النبات والجماد ، فلابد أن تكون بين الأناس أقوى وأعمق ، وبهذا أضفى على الأحجار والأشجار مشاعر العرب التى لا تحول ولا تزول :

تذوب حشاشات العواصم حسرة ... إذا دميت من كف بغداد إصبع
ولو صدعت فى سفح لبنان صخرة ... لدك ذرا الأهرام هذا التصدع
ولو بردى أنت لخطب مياهه ... لسالت بوادى النيل للنيل أدمع
ولو مس رضوى عاصف الريح مرة ... لباتت له أكبادنا تتصدع

وهو فى صورة أخرى يضفى على النخل فى رشيد وبغداد مظاهر الحب المتبادل ، فالنخل هنا والنخل هناك متحابان ، ودجلة والفرات بالنيل مغرمان ، والهرم والإيوان متعانقان :

بغداد يا بلد الرشيد ... ومنارة المجد التليد
يا سطر مجد للعروبة خط فى لوح الوجود
أهلوك أهلونا وأبناء العشيرة والجدود
بين القلوب تشوف ... كتشوف الصب العميد
حتى يكاد يحب نخلك نخل أهلى فى رشيد
شطت منازلنا وما احتاج الفؤاد إلى بريد
الرافدان تمازجا ... فى الحب بالنيل السعيد
وتعانق الظلان ظل الطاق والهرم المشيد

وفى صورة ثالثة يضفى على نخيل مصر وأرز لبنان مظاهر الإخاء فيقول :

لبنان مذ حلت ذراك ركابنا حلت من الدنيا بأكرم ساح
الأرز فيك ونخل مصر كلاهما أخوان فى الأتراح والأفراح
والنيل منك فلو بكيت لفادح غمر الشطوط بدمعه النضاح

ويردد التصوير مرة رابعة فيقول :

حمامة وادى الرافدين ابعثى الهوى حنينا فما أحلى الحنين وما أشدى
فنى النيل أرواح ترف خوافق تقاسمك التاريخ والدين والودا
ظماء إلى ماء بدجلة سلسل تود بنور العين لو رأت الوردا
إذا مست البأساء أذيال دجلة قرأت الأسى فى صفحة النيل والكمدا
وإن طرفت عين ببغداد من قذى رأيت بمصر أعينا ملئت سهدا
إخاء على الفصحى توثق عقده وشدت على الإيمان أطرافه شدا
لنا فى صميم المجد خير أبوة زهينا بها أصلا وتاهت بنا ولدا

وأرجح أنه متأثر فى هذا التصوير بشوقى فى قوله من قصيدته التى حيا بها مبايعيه بامارة الشعر سنة ١٩٢٧ م :

يا عكاظا تألف الشرق فيه من فلسطينة إلى بغدانه
رب جاد تلفتت مصر توليه سؤال الكريم من جيرانه
بعثتنى معزيا بمآقى وطنى أو مهنئا بلسانه
كان شعرى الغناء فى فرح الشر ق وكان العزاء فى أحزانه
قد قضى الله أن يؤلفنا الجرح وأن نلتقى على أشجانه
كلما أنّ بالعراق جريح لمس الشرق جنبه فى عمانه
وعلينا كما عليكم حديد تتنزى الليوث فى قضبانه
نحن بالفكر بالديار سواء كلنا مشفق على أوطانه

(٤)

على أن الجارم كثيرا ما جلجل بالتاريخ العريق العربى الذى يعتز العرب به ويباهون، فقد كانوا فى سالف عهدهم زينة الأرض وسادة العالم . والمثل العليا فى البطولة والسماحة والكرم والنخوة والمعرفة والحضارة ، وهو إذ يهتف بهذا المجد يحض العرب على استعادته ويبغض إليهم المذلة والضعف ويذكرهم ببطولات آبائهم فى عدة قصائد وفى عدة صور ، حسبنا منها أن سيوفهم روعت الدنيا ، وحطمت عرشى كسرى وقيصر ، وأن عزماتهم كانت تطير إلى ميادين الجهاد كأنها خيل تركض بهم ركضا ، وأنهم كانوا فى أتون الحرب نيرانا لا تعبأ بنار . ثم فاخر بنظمهم وأخلاقهم ، فهم الذين علموا الناس المساواة ، وهم الذين شهروا سيوفهم لنصرة الحق، وهم الذين قوضوا صروح الشرك، وأقاموا صروح التوحيد، وهم الذين حكموا العالم بالعدل والرحمة ، وأضاءوا للناس طرق العلم والمعرفة ، فكانت أقلامهم تواكب سيوفهم وتلاحق رماحهم .

لهذا فضلهم الجارم على الأمم التى سبقتهم كالفرس واليونان والرومان ، ثم ختم فخاره بالأسى ؛ لأن الأضغان ذهبت بقوة العرب ومجدهم ووحدتهم .

إنى كتاب إلى الأجيال تقرؤه ... له التغنى بمجد العرب عنوان
مجد على الدهر مذ كانت أوائله ... ودولة لبنى الفصحى وسلطان
صوارم ريعت الدنيا لوثبتها ... وحطمت صولجانات وتيجان
الناس عندهم أبناء واحدة ... فليس فى الأرض سادات وعبدان
تراكضوا فوق خيل من عزائمهم ... لهم من الحق أسياف وخرصان
وكلما هدموا للشرك باذخة ... أقيم للدين والقسطاس بنيان
فى السلم إن حكموا كانوا ملائكة ... وفى لظى الحرب تحت النقع جنان
أقلامهم سايرت أسياف صولتهم ... للسيف فتح وللأقلام عرفان
فأين من شرعهم روما وما تركت ... وأين من علمهم فرس ويونان ؟
كانوا أساتذة الآفاق كم نهلت ... من فيضهم أمم ظمأى وبلدان
كانوا يدا ضمت الدنيا أصابعها ... ففرقتها حزازات وأضغان

ويباهى بالعرب أجداده فيقول :

أين عمرو فتى العروبة والإقـــ ـــدام أوفى مجاهد بالعقـــود
شمَّـــرىّ يحطم السيف بالســيف ويرمى الصــنديد بالصنديد
لم يكن جيشه لــدى الزحف إلا قــوة العزم صــورت فى جنود

إلى أن يقول

ملكوا الأرض لم يسيئوا إلى شعـ ـب ولم يحكمـــن حكم العبيـــد
هم جدودى وأين مثل جدودى إن تصـــدى مفاخر بالجـــدود

ولم ينس فى وصفه الصحراء أن يستطرد إلى الإشادة بأخلاق العرب وعزهم وعدلهم وبأسهم وبسطة ملكهم وفضلهم على العالم ، لأن الصحراء أنبتت أصولهم الأولى أحسن نبات وأزكاه ، وورثتهم من صفاتها وصلابتها :

صحراء فيك خبيئا سر عــزتنـــا فأفصحى عن مكان السر واهدينا
إنا بنو العرب ياصحراء كم نحتت من صخرك الصلد أخلاقا أو الينا
عزوا وعزت بهم أخلاق أمتهم فى الأرض لما أعزوا الخلق والدينا
منصة الحكم زانوهـــا ملائكـــة وجذوة الحرب شبوها شياطينا
كانــوا رعــاة جمال قبل نهضتهم وبعدهـــا ملأوا الآفــاق تمــدينا
إن كبرت بأقــاصى النيل مئذنة سمعت فى القرب تهليل المصلينا

ولم ينس أن الإسلام وشيجة من وشائج القومية العربية ، لأنه بالنسبة إلى المسلمين وحدهم عقيدة وشريعة ،وبالنسبة إليهم وإلى المسيحيين جميعا حضارة وثقافة وآداب وتاريخ ومجد ، فقال فى مناجاة سكان الحجاز :

ياجيرة الحرم المزهـــو ســاكنه سقى العهود الحــوالى كل منسكب
لى بينكم صلة عزت أواصرهـــا لأنهـــا صلة القـــرآن والنسب

وقال لسكان العراق :

سموت إلى بغداد والشوق نحوها يساورهـــا حينا وحينا أساوره
كلانا نــأى عن أهلــه وعشيره ليلقــاه فيها أهلــه وعشائـــره

حبيب إلى نفس العــراق وأهله ... وسالفه الزاهى المجيد وحاضـره
ديار بها الإسلام أرسل ضــوءه ... فسار مسير الشمس فى الأفق سائره
ومدت بها الآداب ظلا على الورى ... تساوت بها آصاله وهواجـره
تجلى بها عهد الرشيد وعـــزه ... وزاهر ملك الفاتحين وباهـره
إذا شئت مجد العرب فى عنفوانه ... فهـذى مغانيه وهـذى مناثـره

وردد الآصرة الدينية فى قوله لسكان السودان :

إن جزت يوما إلى السودان فارع له ... مودة كصفاء الـدر مكنونــا
عهد لـه قـدر عينـاه بأعيننـا ... وعـروة قد عقدناها بأيدينــا
ظل العروبـة والقـرآن يجمعنا ... وسلسل النيل يرويهم ويـروينـا

(٦)

على أن الجارم لم يقتصر على هذا الهتاف ، فانه كان ينتهز الفرص ليهيب بالعرب أن يثبوا إلى آمالهم وثبا ، وأن يطيروا إلى العلا طيرانا ، وأن يعقتوا وحدتهم ، ليعتصموا بها ، فيراهم العدو جماعة فى فرد وفردا فى جماعة ، وكان يحضهم على أن يجددوا آمالهم وأعمالهم وألا يقنعوا بمطلب ينالونه ، كقوله :

أمة العرب آن أن ينهض النســـ ... ـــر فقـد طـال عهـد الرقـود
صفقى بالجنـاح فى أذن النجـــ ... ـــم ومـدى فضل العنان وسودى
وأعيدى حضارة زانت الدنيــا ... فكم ودت المـنى أن تعيـــدى
إنمـا المجـد أن تريـــدى وتمضى ... ثم تمضى سباقـة وتـريـــدى
لاينال العـــلا سوى عبقـــرى ... راسخ العـزم كالصفاة جليـد

وقال فى حفز العزائم :

يـا أمـــة العرب أركضـــى ... مـل ء العنـان ولا تميـــدى
ســـودى فآمـــال المـــنى ... والعبقـــريـــة أن تســـودى
هـــذا أوان العـــدل لا الـــ ... إبطـــاء والمشـــى الـــوئيـد

المجـــد أن تتـــوثـــبى — وإذا وثبت فـــلا تحيـــدى
وتحـــلقى فـــوق النجـــو — م بـــلا شبيـــه أو نـــديـــد
وإذا شـــدا الكـــون المنـــا — خـــر كنت عنـــوان النشيد
لا تخطـــئ حـــد العـــلا — ماللمعـــالى مـــن حـــدود

وذكرهم فى مجال التحميس على مجاهدة الاستعمار — أنهم أبناء الحروب ، ألفوها وألفتهم ، واستحلوا غبارها ، فكان فى أفواههم ألذ من الشهد ، وكان فى أنوفهم أطيب من المسك ، وعقب على هذا بأن القوة هى الوسيلة للذود عن وطنهم واسترداد حقوقهم :

أولئك أبناء العـــروبة مالهـــم — عن الفضل منأى أو عن المجد منزع
هم فى ظلال الحـــق جمع موحـــد — وعند إلتقاء الـــرأى فـــرد مجمّع
وقد يدرك الغايات رأى مدرّع — إذا نـــاء بالأمر الكمى المـــدرع
لهم أمـــل لا ينتهى عنـــد مطلب — لقد ذل من يعطى القليل فيقنع
غبار رحـــا الهيجاء فى لهـــواتهم — من الشهد أحلى أو من المسك أضوع
إذا لم يكن حلم الحلـــيم بنافـــع — فان صدام الجهل بالجهل أنفع

ولما أعلن أنتهاء الحرب الكبرى فى مايو ١٩٤٥ استقبل الحارم هذ البشرى بالبهجة ، ورسم صورة لأمانيه ، ومنها أن يسترد العرب عزهم واستقلالهم :

ليت شعرى ماذا سنجنى من النصـ — ـــر وهل تصدق الليالى الوعودا؟
وهل الأربع الروائع[1] كانت — حلما أم مـــواثقـــا وعهـــودا
وهل العرب تسترد حمـــاهـــا — وتناجى فردوسها المفقـــودا ؟
وترى فى الإسلام مجـــدا طريفا — جاء يحيى بالأمس مجدا تليدا ؟

(١) الحريات الأربع فى ميثاق الأطلس .